فصل من رواية

# حكاية بحّار

حنّا مينه

كان سعيد حزّوم يستلقي على الرمل الحار مستسلما بكلّ جوارحه الى دفئه الذي ينعش قواه. كان يفتح عينيه ويغمضهما، ويشدّ بجسمه على الرمل كما لو انه يود أن يغوص فيه. وقد قال في نفسه: « وداعا أيها البحر ». وقال ايضا: « عليّ أن أودّعه كبحار. لقد انتهى كل شيء الآن، ولم يعد الماء ملعبي ومملكتي. لقد كابرت كثيرا، ورفضت تقبل هذه الحقيقة، وأصررت على انني لن أهرم، وسأظل ذلك البحّار الذي كنته، ولكن الاعوام، الاعوام الطويلة، أوهنت قواي، وصار عليّ منذ الآن، أن أقف على الشاطىء وأخوض في الماء بمقدار. سأسبح كما يفعل الآخرون، وقد اذهب في العمق قليلا، لكنني لن أكون فارس البحر بعد اليوم. لقد ترجّل الفارس وظلت الفرس شموسا. ظلت أرنة، فتية، بطرة، قادرة على ان تعدو مارقة في الفضاء خطفا كأن قوائمها لا تلامس الارض. لقد تعب البحّار ولم يتعب البحر، وها هو كعهدي به يترقرق بموجه على الشاطىء، وديعا، رفيقا، حييا، مختزنا قواه للشتاء، آن العواصف ثورة مدمرة تكتسح الحواجز، وتحطم المراكب، وتهزأ بالبحارة. وبانتظار ذلك يحيا البحر قانونه، ويجدد شبابه.. البحر يجدد شبابه، والبحّار يمضي الى الشيخوخة، آه، لماذا البحر يجدد شبابه والبحّار يمضي الى الشيخوخة؟

انقلب سعيد على ظهره وحدق بالسماء. عالية هي السماء. شمس ساطعة في فضاء لا متناه، وزرقة موشحة بآثار بياض، وابتسامة عريضة، ماسية، متوهجة، تتسع للكون وتغمره بكل ما فيه، من جهة الرمل الى الجبل. الشمس تغمر كل شيء، وتتلألأ على البحر مرايا، والرمل أسمر، تلتمع حباته كنثار الزجاج، وخيمات منصوبة في أقصى المكان من جهة المقهى، ومظلات ملونة، مغروزة الاوتاد في تنكات من الاسمنت، ورجال ونساء وأطفال على الشاطىء بثياب الاستحمام، أو في اللباس الكاملَ، وتشكيلة الالوان للمنظر كله، تعطيه مشهد مهرجان أو عيد، بكل ما في المهرجانات والاعياد من صخب وضجيج والوان ذات مفارقات. الكل يلهو على الشاطىء. ثمة رجال يلعبون الكرة بأقدام حافية، وشباب يسيرون على الرمل المبتل، يعرضون جسومهم ويستعرضون أجسام المستحمات، ونساء يستلقين في الشمس مغمضات الاعين لاكساب بشراتهن اللون البرونزي، وأطفال يعبثون بالرمل، يبنون بيتا أو يحفرون نفقا، فلا يلبث الموج أن يهدم البيت ويقوض النفق، وشخص يتكىء على ذراعه وينخل الرمل بحركة آلية، وآخر يكتب شيئا على العجينة الرملية، فيمد الماء لسانه ويمحو ما كتب، وفي البحر السابحون والسابحات، يتصايحون، يتراشقون الماء، يغوصون، يقفزون، وامراة بدينة قد ادخلت خصرها في دولاب مطاطي خشية الغرق، وفتيان يعاكسون فتيات، ورجل يحاول أن يعلّم زوجته السباحة بغير طائل، وفتيان يسبحون برشاقة كأنهم ضفادع تنطلق في أشكال سهمية وهي تغوص وتظهر، وتحرك يديها وقدميها في حركات ايقاعية انسيابية بالغة الاتقان.

ظل سعيد مستلقيا على الشاطىء، يتقلب على الرمل، ويحدق في الفضاء، ويتفرس فيما حوله، ويراقب الشمس الكسول في السماء، راغبا في أن تهبط اليه، أو ترخي شعورها فيتعلق في خصلة منها ويرتفع اليها، حيث يصبح جرما صغيرا يدور حولها.

لقد وصل أمس مع الغروب ، كان سعيدا حين وصل مع الغروب . كان يعدّ نفسه فتى بحر ، ولم يكن يأبه للشعر الابيض في رأسه وصدره . لم يفكر ان جسمه سيخذله كما حدث اليوم ، ومن فرط اعتداده بنفسه فرض وصايته على من معه من الصحب وصار مرجعهم في شؤون البحر .

وقبل ذلك ، فيما هم على الطريق ، تحدث عن البحر طويلا . كانوا قافلة من السيارات ، وكان في السيارة التي يركبها يتحدث الى من معه عن البحر كما يتحدث ملك عن مملكته . وقد برقت عيون النساء وهنّ ينظرن اليه باعجاب، وقالت طفلة وهي تستسلم لاحضانه في نوع من الاطمئنان :

ـ هل البحر كبير يا عمّاه ؟
ـ كبير جدا يا بنيتي .
ـ بحجم السماء ؟
ـ واكبر !

فنظرت الطفلة الى السماء وابتسمت . كانت هذه كبيرة الى درجة لا تحدّ ، وكان البحر قد صار أكبر من السماء في خيالها ، وهي لا تعرف شيئا أكبر منها .

قالت الطفلة :

ـ وماذا في البحر ؟

قال سعيد :

ـ في البحر كل ما في البر .. جبال ووديان ، أشجار وغابات ، سهول وتلال ، مغائر وكهوف ، نباتات وأعشاب ، وفيه مخلوقات من كل الانواع .

ـ مخلوقات مثلنا ؟

ـ ليس مثلنا تماما ، مخلوقات البحر على شكل اسماك .

ـ وماذا أيضا ؟
ـ ماذا تريدين ؟
ـ هل في البحر عصافير ؟
ـ فيه طيور وزواحف وحيوانات اليفة ومفترسة.
ـ وهل فيه أطفال ؟
ـ طبعا ، للاسماك صغارها أيضا .
ـ وصبايا ؟
ـ في البحر سمكة برأس آدمي ، يقال لها عروس البحر ، وفيه سمكة بذيل ، يقال لها فرس البحر .

قالت الطفلة دهشة ومسرورة :

ـ وفيه سمك أحمر ؟

قال سعيد :

ـ سمك أحمر ، وفضي ، وأصفر ، وأخضر ، ومن كل الالوان .

ازدادت دهشة الطفلة ، وسرورها . بل ان بعضا من هذه الدهشة والسرور كان قد ران على السيدات ، وهذا ما ضاعف شوقهن للوصول الى البحر ، فطلبن من السائق أن يزيد من سرعة السيارة، وقالت سيدة منهن:

ـ هل رأيت يوما عروس البحر ؟

قال سعيد :

ـ أنا لم أرها . لست صيادا يا سيدتي . أنا بحّار . أعني كنت بحارا . وعروس البحر لا ترى في الاعماق . يقال انها تتبع السفن في ضوء القمر ، ولقد وقفت في مؤخرة السفن التي عملت عليها طويلا ، لكنني لم أر عروس البحر . رأيت الدلفين وكلب البحر والقرش .. ومرة رأيت الحوت . يا الهي ما كان أكبر الحوت ! انه بحجم مركب صغير ، ولو شاء أن يقلب سفينة لغطس تحتها ورفعها بظهره فقلبها ، ولهذا فانهم يجعلون غاطس السفينة حادا كشفرة سكين .

قالت سيدة أخرى :

ـ من رأى عروس البحر اذن ؟

بعض الصيادين . يقال ان عروس البحر تعشق انسيا ، وفي بعض الليالي تخرج من الماء وتمشي على الشاطىء ، وقد تتمدد على الرمل فتنام ، فاذا أشرقت عليها الشمس عجزت عن الحركة والعودة الى الماء ، وعندئذ يصطادونها .

ـ وماذا يفعلون بها ؟
ـ يفتتنون بها .. يحافظون عليها ، ويبذلون حياتهم ارضاء لها اذا طلبت منهم ذلك .
ـ ولماذا لا يتزوجونها ؟
ـ لا يستطيعون .. شرطها للزواج ان يذهب معها الصياد الى مملكة أبيها في أعماق البحر ، فاذا رفض فارقته ، لكنها اذا أحبته فلن تنساه ، وفي الليالي المقمرة تخرج اليه ، حاملة حفنة من لآلىء البحر .
ـ ولماذا لا يذهبون معها الى مملكة أبيها ؟
ـ لأن الانسان الذي ولد وعاش على هذه الارض لا يقوى على مغادرتها . السمكة تحب البحر ، والانسان يحب الارض ، وهذه هي المسألة .
ـ الصيادون يعيدون عروس البحر الى الماء اذن ؟
ـ من يحب امرأة يخضع لها .. والذي يحب عروس البحر لا يؤذيها . يعيدها الى البحر كما تطلب . وهي لا تنسى المعروف . السمكة وفية كالانسان ، بل أكثر وفاء من الانسان .
ـ وماذا تعشق عروس البحر في الصياد ؟
ـ شبابه .. الانسان أجمل المخلوقات في الشباب .
ـ وفي الشيخوخة ؟
ـ كل الحيوانات أجمل منه . تأملي وجه فرس عجوز ووجه امرأة عجوز .

صاحت سيدة :
ـ هذا مخيف !
ـ لكنه واقع ..
ـ أنت تعشق عروس البحر كما يبدو .

صمت سعيد . كانت السيارة تنطلق في السهل بين الدبوسية وطرطوس ، والشمس كرة ذهبية تزحل على طرق الافق الغربي ، وضوء المساء الفتان يغمر الاراضي الممتدة على جانبي الطريق ، وريح رخية تستقبلهم حاملة رائحة البحر المنعشة ، وهو يفكر فيما قالته السيدة . تساءل : « هل أعشق عروس البحر حقا ؟ » . واعترف في ذات نفسه : « بلى ، أنا أعشق عروس البحر ، لكنها غير العروس التي رأسها امرأة وذيلها سمكة . انها امرأة حقيقية ، وستخرج يوما من البحر كما فعلت ذلك اليوم » .

وفكر في البحر فقال في نفسه : « هذا حبيبي ، الازرق الرحيب حبيبي . منه الخير والعطاء والنعمة والبركة ، ومنه المرأة التي أحب ، والمرأة التي سأحب كل حياتي » .

وبعد أن تنهد بحرقة أضاف : « لكم أحببتها وتعذبت في حبها ! ولكم كابدت الشوق وقاسيت الحرمان ، وظللت رغم ذلك عاجزا عن نسيانها ! » .

لقد حدث ذلك في ليلة صيف .

كان يتمدد على الشاطىء وحيدا ، وكان الليل مضاء بالقمر ، والفضاء منورا شفافا ، والنجوم مصابيح مشعة ومتناثرة ، والزبد ينفرش رغاء أبيض مخرما على الرمل ، وخرير الموج موسيقى ناعمة ، وسكينة الليل المخملية تبعث على النشوة والخدر .. كان كل شيء بهيا آسرا الى درجة انه تمنى الا ينقضي الوقت ولا تتنفس الكائنات من حوله فتفسد روعة تلك الليلة التي غمره ضياء قمرها واحتواه جمالها .

وفجأة ، خرجت تلك المرأة من البحر . هو لم يرها تخرج من البحر ، ولم يرها تأتي من اليابسة ، ولعلها انبثقت من رمل الشاطىء ، أو لعلها هبطت من الفضاء ، لم يفكر آنئذ الا انها ابنة الماء ، غادرته لتتنزه قليلا هناك ، على مبعدة يسيرة منه .

كانت ترتدي غلالة بيضاء ، ولها كتفان موردان ، وساقان من مرمر ، وقامة مهيبة ، ورأس مرفوع ، يتطاير شعره الغزير في الريح التي تنسم من الاعماق . كانت جميلة حتى ليشفق المرء أن يلمسها فيفسد ذلك الانسجام الالهي في قوامها .

ذهبت وجاءت . كانت تخطو على الرمل الاملس ، وتترك قدماها العاريتان آثارها على صفحته المستوية البليلة ، وتداعب الريح غلالتها فتكشف عن صدرها العاجي الناهد تحت هفهاف الحرير ، وتفاحتان تهتزان بفعل السير ، وذيل الغلالة يطير في الريح كأنه ذيل حورية من الجنة .

لم يستطع صبرا فاستقام جالسا في مكانه . واذ رأته دهشت . نظرت اليه باعجاب ، ورنا اليها مفتونا . تلاقت العيون . ونهض للقائها . مشى اليها كأنه سائر في نومه ، ومد يده ورآها تمد يديها ، وحسب انه بلغها ، وانه سيمسك بها ، لكنها ، في لحظة التلاقي ، تراجعت ، وتراجعت ، وغابت ، وشاهد البحر يفور ، ويغور ، فيه جسم أبيض ، ورغاء يندلح على السطح ، ويتلاشى الرغاء ، والقمر يغيب ، ويظل هو وحيدا في عتمة الصبح ، على الشاطىء الوادع

* * *

كانت السيارة تنطلق الآن في السهل ، والطفلة تتأمل وجه سعيد المستغرق فيما يشبه الحلم ، ثم هزته من كتفه وقالت :
ـ هل ستصطاد لي سمكة حمراء ؟
ـ ليس معي صنارة .
ـ امسكها بيدك .

فداعب رأس الطفلة وقال :
ـ السمكة لا تمسك باليد يا صغيرتي

اغتمت الطفلة لان « سعيد » لا يستطيع امساك سمكة حمراء لها ، ورانت على محياها ظلال أسف ، وظلت صامتة حتى وصلوا البحر .

هناك توقفت السيارات ، واستعد سعيد لان يقوم بواجبه كدليل وبحار معتمد من قبل الصحب ، ونزل الركاب فتمطوا وتمشوا ليتريضوا ، وشرعوا مع غلمان المقهى بنقل أمتعتهم الى الشاطىء ، حيث سبقهم سعيد لانتقاء بقعة التخييم .

انه يعرف شغله جيدا . رسم بقضيب حديدي أمكنة الخيام الثلاث، وحرص على أن يكون موضع خيمته أدنى ما يكون الى الماء ، وطفق في دق الاوتاد ، ونصب الاعمدة ، وساعده الرجال في رفع الخيام وربطها بالاوتاد ، ثم دخلوها وارتدوا ألبسة البحر ، ونزل الجميع الى الماء ، بينما ظل هو يقوم بالواجب الذي التزم به .

لقد أحسن انتقاء الاماكن وتوجيه أبواب الخيام كيلا تتلاعب بها الريح ، وأعاد هندسة الاوتاد ، حتى اذا راق له كل شيء ، رضي عن نفسه ، وقدّر انه سيفوز بمزيد من احترام من معه ، هو البحار الذي طوع البحر، ويعرف كل بقعة فيه على هذا الشاطىء .

كان قد عرى جذعه . بقي في بنطاله فقط . واستعاد بفرح طفولي حاله يوم كان بحارا ، وعليه منذ

أن يرسو المركب أن يقوم بطيّ الاشرعة ، وترتيب السطح ، واصلاح ما يجب اصلاحه ، واشعال «اللوكس» .. هذا الذي تعطي انعكاساته على الماء فيضا من أضواء انديا حية رجراجة ، حتى اذا فرغ من ذلك كله ، نزل البر ، أو قام بنوبة الحراسة اذا كان الدور عليه .

هنا لا توجد مراكب . انها خيام . مراكب راسية على الرمل ، تطوى وتنشر كالقلوع ، غير انها لا تنزل الماء ولا تبحر في الابعاد . وهو لم يعد بحارا . مضى زمن البحر . ترك المهنة ومعها مسرات قلبه ، ويخيل اليه أحيانا انه نسيها ، أو انه أصبح قادرا على نسيانها، فاذا عاد الى البحر ، عاوده عشقه له ، وتقمص من جديد صورة البحار الذي كانه .

نقل غلمان المقهى بعض الطاولات والكراسي ، فتناولها وصفها أمام الخيام ، وبسط على الطاولات بعض الاواني ، ورتب الحقائب في الداخل ، وأشعل « اللوكسات » الثلاثة لتكون جاهزة ، وعلقها على الاوتاد الامامية للخيام ، واحضر زجاجات من البيرة المثلوجة حفظها في خيمته ، وخب في الرمل خفيفا ، مرحا ، وقدماه العاريتان تغوصان فيه ، ثم قرفص وأشعل سيكارة ، فيما الشمس تغرب ، ووشاح الليل يهبط رويدا رويدا على الارض .

كان الآن أشبه بصاحب حديقة يقرفص أمام كوخه وينظر الى الزروع الموسمية التي تنبعث في حديقته ، أو كفلاح يرنو الى الاراضي التي اكتست بالنبت الاخضر في مستهل الربيع ، ويتأمل الجني المقبل لأراض تعب شهورا في حراثتها وبذرها .

ولم يكن أمام الخيام أحد غيره . كان وحده يدخن ، ويفكر ، وكان حيا ، يقظا ، يمور صدره بأحاسيس بهيجة ، كصياد انتهى من نصب خيمته ، وانجز استعداداته لاستقبال الليل ، حيث ينطلق في الصباح الباكر الى الصيد .

وكان البحر أمامه قد غدا منبسطا رحيبا ترفّ عليه آخر ظلال النور . هذا هو عالمه . هذه دنياه ومرتع صباه . وكانت المراكب في الميناء تلوح صواريها في الغبش مسلات خشبية تتعالى وتتأرجح . بعض خامها منشور ، وأكثره مطوي ، وكانت الريح تتلاعب بها ، وهو يحسّ بهذه الريح احساسا قويا ، اعتاده من اصغائه الطويل الى مناسم هبوبها ، وخاصة في المواعيد التي تسبق الاقلاع .

ومن بعيد ، حول جزيرة أرواد ، كانت تلوح مراكب أيضا ، وحولها الفلائك ، وزوارق ذات محركات تمخر البحر ، ذاهبة آيبة ، واضواء تلوح ، وافق ينداح ، مديدا مديدا في الابعاد .

خرج المستحمون من البحر . تراكضوا يخبون في الماء فيتطاير الرذاذ من أمامهم ووراءهم ، وقطراته تتدحرج على الجسوم المتوردة بفعل الحركة وبرودة المساء . هرولوا جميعا باتجاهه فرحين بما فازوا به من متعة ، وقد لوح بعضهم بالايدي وهجموا على الخيام ليبدأوا الاغتسال وارتداء ثيابهم قبل حلول الظلام .

لم يبق في البحر أحد . هجره السابحون ، وغابت عنه الشمس ، وظلت الريح وحدها تداعب سطحه ، وتدفع بموجه نحو الشاطىء . ان روحا غريبة ستطوف بالبحر ليلا . تتناسل من الظلمة ، وتمسح خديها بذوائب الموج ، وتطير بأجنحة غير مرئية فوق كائناته المائية التي تفشي سرها للنجوم ، في صلاة ابتهالية تصعدها من الاعماق ، نجوى قلوب حبيسة في قيعان من المرجان والياقوت ، منغلقة على ذواتها انغلاق المحار على ذاته التي تصير مع تقادم الزمن لؤلؤا أبيض .

هو . سعيد حزّوم ، يعرف هذه الروح . لم يلمسها ولم يعانها ، لكنه يعرفها . يدركها بحواسه الخمس ، بمساماته التي تتنفسها كما تتنفس أعشاب البحر رائحة يودية خاصة في مثل هذه الامسيات .

بدأت المصابيح تشتعلّ على طول الشاطىء ، واشتد اللغط في الخيام . لقد عاد المستحمون من الحمامات ، وصار في وسعه أن يترك نوبة حراسته . سيلقي بنفسه في الماء الآن . ما أعذب اللحظات التي تسبق القاء الجسم في الماء ! سيسبح بعيدا ، وحيدا ، ويقول في ذاته للبحر كعادته : « حبيبي ، يا حبيبي ، يا حبيبي . لقد عدت اليك » .

نهض وتريض . طمر عقب سيكارته في الرمل بقدمه ، ولحق بسرطان صغير خرج من وكره وراح يدب على الرمال . السرطانات تخرج من أوكارها مع الغروب، ولسوف تدب على الرمل المبلل أيضا ، وهو يحبها ، حيوانات البحر الصغيرة هذه .

ركض أخيرا باتجاه الماء . ركض مندفعا كقذيفة ، وكسهم انقذف في الماء ، وغاص في البحر الذي تلقاه بذراعين مفتوحين ، وغمره كله ، فتطاير رذاذ ، وغاص الجسم الى القاع ، وذهب كسمكة فيه ، مستشعرا نداوة ونشيشا ، وحضنا دافئا يحتويه .

صاحوا به من الشاطىء :

ـ سعيد !

ـ يا سعيد !

ـ ارجع يا سعيد !

وسمع صيحاتهم مسرورا . كان يسرّه أن ينادوه وهو يبتعد . معنى هذا انهم يخافون عليه ، ولكن ممّ يخافون عليه ؟ من البحر ؟ كيف يقول لهم : « لا تخافوا

البحر » عبثا ؟ اذا شرح لهم ما يحسه ماتت الكلمات على شفتيه . أن تحب يعني ألا تتكلم . أحب بصمت ، بصمت ، بصمت . أنظر في العينين . ماذا تقول العينان ؟ ومن يترجم ما تقوله العينان ؟ بئس الصوت . النظرة صوت . النظرة صوت .

ـ سعيد !

ـ يا سعيد !

ـ ارجع يا سعيد !

ولم يرجع سعيد . كان يطيب له ألا يرجع . ليس فقط لانه يحب البحر ويريد أن يذهب فيه بعيدا وعميقا، بل لانه يريد أن يستثيرهم ، ويخيفهم ، ويريهم الفرق بين أن يلهو المرء في البحر وأن يعشقه .

بلغ نقطة لم يعد يرى منها جسوم الذين على الشاطىء . الاضواء وحدها كانت تتراءى له من مطلاتها العليا في النوافذ والشرفات وسطيحة المقهى ، وأصبح البحر من حواليه بساطا داكنا من ماء رصاصي ، والظلمة هبطت فحجبته تماما ، وعندئذ ادرك انه نأى كثيرا عن الشاطىء ، وان عليه أن يكبح شهوته الى السباحة والا بقي الى الصباح في الماء ، فعاد مستلقيا على ظهره ، سابحا بتؤدة وهو يعدّ النجوم بسعادة بالغة .

لو كان في البسيط لأشعل النار . اشعال النار متعة . السهر على البحر متعة ذات طقوس . ففي الليل، وعلى الشاطىء ، يحلو السمر على وهج النيران ، والقوم من حولها كقبيلة بدائية ، يرقصون ويغنون ويدورون بها على ايقاع مجنون .

هناك الغابات تجاور البحر ، ومن الغابات ينث عطر الصنوبر ، وتغدو الاشجار في الليل متداخلة مثل كتلة ضخمة من سواد ، فاذا أشرق عليها القمر بدت كعرائس جن ترفع أصابعها الى أعلى في تعبير ايمائي ، كما عند الختام لرقصة مجوسية .

هنا لا غابات ولا نيران، ومع ذلك فان «اللوكسات» تنشر ضوءا يتراءى ماسيا على الرمال ، وتجعل البقعة المضيئة شعلة نور وسط ليل ساج ، وتزيد في سحر الجو الذي يبدو وكأنه ينطوي على سر عميق . ووسط هذه البقعة المضيئة يتحرك الناس وظلالهم تتراءى وتتطاول من حولهم ، ثم يجتمعون في تلك الجلسة الليلية العذبة التي لنسيمها على الاجسام تلك اللذعة الحلوة التي لأقراص النعناع على الالسنة وهي تعطي نكهة ذات برودة منعشة .

انسلّ الى خيمته ليتهيأ استعدادا للعشاء . ذهب فاغتسل وارتدى ثيابه . فتح زجاجة بيرة مثلوجة فترشفها بلذة ونهم ، كعادته دائما عندما يخرج من الماء ، وراح من مجلسه أمام الخيمة يتابع حركات الصخب النشطة والمألوفة ، وهم يعملون كعائلة متحابة في تهيئة طعام المساء ، والنساء يعددن الحساء الحار الذي يرتفع بخاره من القدر ، ويتعالى كدخان أبيض في الفضاء ، ويفتحن المعلبات ويبسطن الطعام ويرتبن الصحاف . لقد كانت هذه الوجبة بعد السفر الطويل ، والابتراد في البحر ، من اشهى وجبات الرحلة ، وكانوا يقبلون عليها بشهية ملحوظة ، ويتبادلون خلالها الاحاديث والنكات التي تطلق الضحكات في مرح طفولي من الصدور .

وكانت الخيام ، بمصابيحها المعلقة على الاوتاد ، تعطي المشهد منظر قوم يخيمون في صحراء ، وأمام احداها اعدت المائدة ، وهرولت كلاب اليفة لتلتقط الفضلات ، وتابعت السرطانات الصغيرة الخروج من أوكارها ، وازداد مدّ البحر مع ضوء القمر ، وفي سكينة الليل تصاعدت معزوفة الموج الرخيصة والرتيبة على الرمل ، وعندما انتهوا من الطعام شرعوا يدخنون ، وبدأت تلك السهرة الليلية الحبيبة بجوار البحر ، وكان هو يحب السهر على البحر ، ويفتنه ضوء القمر ، ويعرف ان النوم ، في مثل هذه الليالي ، يجفوه ، ويحسّ بعد تفرق الصحب بحاجة الى الصمت والتأمل ومداراة تلك الانفعالات الذاتية التي تنتابه .

ولقد كان مسرورا في سهرته مع أصحابه ، وكان يصغي الى أقوالهم عن البحر بفرح طفولي ، كأنما يتحدثون عن شيء يخصه جدا ويحبه جدا . وقد روى لهم حكاية بحار عجوز ، كان في نوبة حراسة على رأس السارية ، فلما سمع صوتا جميلا من المركب ، تملكته نشوة عارمة ، وعندما صاح المغني بمطلع بيت من الشعر، ألقى البحار بنفسه في الماء تعبيرا عن الاعجاب .

قالت سيدة بنبرة استغراب واستنكار :

ـ في الماء ؟

فأكد سعيد :

ـ نعم يا سيدتي في الماء !

وقال رجل :

ـ انه مجنون .

فنفى سعيد :

ـ بل كان عاقلا جدا .

وقالت سيدة :

ـ أما خاف الغرق ؟

قال سعيد :

ـ وما اهمية ذلك ؟ أقول لكم انه كان معجبا بالصوت .

فقالت السيدة :

ـ ويموت من فرط اعجابه ؟

فسكت سعيد ، وقال في نفسه : « لن يفهموا عليّ » . ثم انسحب الى خيمته ، وتفرق القوم ، وبعد قليل أطفئت المصابيح ، وأسدلت أبواب الخيام .

تمدد على الرمل أمام الخيمة ، ونظر الى صفحة الماء المتلألئة بأشعة القمر الفضية ، واستراح الى معزوفة الموج الرتيبة . كان قريبا من البحر حتى ليستطيع ، لو تحرك قليلا ، أن يمد يده ويغمسها في زبد الموج . وراح يستعيد ، وهو يرنو الى النجوم ، صورة « عروس البحر » التي خرجت اليه ذات ليلة صيف ، ويتساءل : « ترى تحدث المعجزة ، وتخرج اليّ ثانية في ليلة الصيف هذا ؟ » . أصحابه ينامون الآن ، وكذلك تنام الطفلة التي جاءت اليه في أول الليل تسأله عن السمك الاحمر والاخضر والاصفر ، هذه اللوحة الملونة التي تشغلها وستحلم بها وبالسمك الذي تفكر كيف تمسكه بيديها الطفلتين . وقال في نفسه : هنيئا للخليّين ! انهم ينامون بينما أسهر أنا ، انني أحب السهر وحيدا . أنا والليل والقمر ، وهذا يسعدني ويكفيني .

استرخى في استلقائه على الرمل ، وراح يتابع انعكاسات الضوء الفضي على الموج المتكسر على الشاطىء ، حتى غلبه النعاس فنام .

في اليوم التالي أشرقت عليه الشمس وهو نائم مكانه على الرمل . ابتسم للشمس ما أن فتح عينيه ، واستشعر رطوبة في مفاصله ، فنهض وراح يعدو على الشاطىء لينشط جسمه ، ثم نزل الماء وسبح ، وسرعان ما استعاد نشاطه ، وخرج فتناول قهوة الصباح ، ودخن سيكارة ، ثم أفطر وقصّ على الطفلة حكاية صغيرة عن البحر ، وحملها ونزل بها الماء .

في الضحى امتلأ الشاطىء بالناس ، وبدا الصخب والضجيج المألوفان ، وشرع المستحمون بالسباحة ، وكان عليه ، كما يليق ببحّار قديم ، أن يقوم بمهمته قياما حسنا ، لا بتعليم الذين لا يعرفون السباحة فحسب ، بل أن يكون منقذا لمن يحتاج منهم الى انقاذ ايضا . لهذا جعل يعطي تعليماته ، ويوجه نصائحه وارشاداته ، ويشجع ، ويصحح ، ويقوم باعطاء أمثلة عملية عن أفضل طرق السباحة والغوص ، وينأى بمن معه عن دائرة الناس الذين تكاثروا ، ويجنبهم الاماكن الخطرة ذات المنخفضات الرملية أو الدوامات المائية .

لكنه سرعان ما اصطدم بما لم يكن يتوقعه .

نبق ، فجأة ، قربه فتى مدبوغ الجلد بالملح واشعة الشمس . انه شاب وسيم ، في مقتبل العمر ، وقد ناداه ، على مسمع من الجميع :

ـ هيه ، أنت ، هل أنت بحّار ؟

قال سعيد وهو يروزه :

ـ كنت بحّارا ، فماذا تريد ؟

ـ وهل أنت معلم سباحة ؟

ـ كلا ، لماذا تسأل ؟

ـ أراك تعطي الاوامر للجميع !

ـ أعلمهم السباحة كما ترى ..

ـ وهل تعرف أن تسبح أنت ؟

ضحكت سيدة قربه. كان السؤال سخيفا بالنسبة اليها ، لكن سعيد فطن فورا الى ما وراءه ، فاغتمّ وآثر أن يلاطف الفتى ليصرفه .

ـ أسبح قليلا ، فماذا تريد ؟

ـ أن نتبارى بالسباحة ، فنذهب في البحر ، ونرى من يسبق ؟

ثارت ضحكات متفرقة رنّت في اذني سعيد كمطارق . لقد وثقوا به ، هؤلاء ، وعليه الآن أن يبرر ثقتهم ويقبل السباق .

فكر قليلا ، وراز الفتى من جديد ، وقال بخجل شديد :

ـ لا ، لن أسابقك .

قال الفتى :

ـ تعترف بالهزيمة سلفا ؟

ـ أعترف ..

ـ وتخرج من الماء ؟

ـ لماذا تريدني أن أخرج من الماء ؟

ـ لأنك ترفض السباق .

أطرق سعيد وقد كسره هذا التحدي . كان عليه أن يخرج من الماء أو يقبل السباق ، ولأنه رفض الخيارين فقد استدار الفتى ، بحركة احتقار ، وغادره الى جهة أخرى .. لكنه ما كاد يبتعد حتى ناداه سعيد :

ـ هيه ، أنت ، أيها الفتى ، تعال اليّ !

ـ ماذا تريد ؟

ـ غيّرت رأيي .

ـ تسابق ؟

ـ نعم ..

بوغت الفتى ، وسرى في الجمع تعجب مقرون بالاشفاق ، وقالت سيدة معترضة :

ـ مالنا وللسباق ، دع عنك ذلك يا سعيد !

وقال رجل :

ـ ابق معنا .. لماذا تعكر علينا مسرتنا ؟

وقال الفتى دون أن يخفي تحديه :

ـ علام استقر رأيك ؟

ـ على السباق .

ـ ولماذا رفضت أولا ؟!

ـ قلت لك غيّرت رأيي ..

كان سعيد يرتجف . لقد أهانه الفتى بغير شفقة.

ومع انه كان على ثقة قليلة بالفوز ، الا انه قرر الا يترك الساحة قبل العراك . قد تكون هذه آخر مغامرة له ، وقد يهزم ويودع البحر مهزوما ، لكن هذا يظل أفضل من أن يغادره مسحوبا من المعركة .

تقدم منه الفتى مزهوا . كان على يقين من النصر . ان هذا الكهل لن يصمد أمامه في الماء ، ولسوف يسبقه بغير مشقة، وستشهد الشمس ، والبحر، والحاضرون، نهاية بحار عجوز يريد أن يسابق بحارًا فتى .

ولم يقل سعيد شيئا وان كان توتره قد ازداد بصورة ملحوظة . لقد قبل التجربة وانتهى الامر . هو يعرف النتيجة ، لكنه لن ينكص . قبل قليل كان سباحا لا يضاهى ، كان استمرارا للماضي الذي ارتطم الآن بالحاضر . ان الحاضر سيكون حدا بين ماضيه ومستقبله ، وهو لن يرفض مهما يكن . سيبذل جهده ، ويستنجد بكل قواه ، ويقذف بنفسه في اللجة تاركا لها أن تقرر مصيره .

نظر الى الفتى باعجاب وبغير عداء ، انه خصمه ولكنه لا يستشعر حياله بعداء الخصومة . رازه من جديد ، وتفرس في جلده المدبوغ بالشمس والملح والريح، وقدّر انه لن يكون شيئا بالنسبة اليه اذا ما قبل السباق على وجه الماء . هو يعرف نقطة ضعفه هنا . كان سباحا مشهورا ، لكن السباق في قطع المسافات على وجه الماء يشكل نقطة ضعفه ، وكان الغوص ، بخلاف ذلك ، نقطة القوة . انه غواص لا يجارى، ومهما يكن تأثير السن فان هذا ميدانه ، وسيحمل الفتى على السباق في هذا الميدان لا سواه .

مد يده وامسك بالفتى من رمانة كتفه . جذبه نحوه وقال له :

ـ هذا هو البحر .. وسننزل تحت الماء ، ومن يسبق يفز ..

قال الفتى :

ـ حسنا .

كان الفتى غواصا هو الآخر ، وكان الناس قد تحلقوا من حولهما ، وسطعت الشمس وتلألأت على صفحة البحر ، وبدا المدى الازرق الرحيب ساكنا ، حابسا انفاسه بانتظار النتيجة ، وكانت الطفلة الى جانب أمها تسأل عما يجري ، وقد دهشت لهذا التبدل الذي طرأ على سعيد ، وأفزعها عبوسه وتقلص عضلات وجهه، وهمّت بأن تناديه ، لكنه ، في اللحظة نفسها ، كان قد غطس في الماء ، وغطس الفتى الى جانبه بوقت واحد.

فتح سعيد عينيه في الماء كعادته . كان قد نزل الى الماء بحركة قفز عمودية ، ثم استقام وقد شدّ جسمه ، وجعل يفتح ذراعيه ويشق الماء بهما مندفعا الى الامام بحركة ايقاعية مع انفتاح ساقيه وانغلاقهما ، وكان يحافظ على مسافة دانية من سطح القاع الرملي الاملس ، ويرى أمامه جيدا ، ويرى الى جانبه الفتى يندفع بمثل حركته ، ويأمل ، مع تطاول الزمن والمسافة، أن يرى الفتى متخلفا عنه ، وقد جرب هذا أن يقوم بحركة اعتراضية تجعل خصمه وراءه ، لكن سعيد تفادى الاعتراض ومرق كسهم وحافظ على المسافة المتساوية معه . انه يكره هذه المناورات ، ويريده سباقا شريفا ، فروسيا ، يحترم الرجولة والبحر .

غير انه لاحظ ان قوة الدفع ، في حركة ساعدي الفتى ، الى أمام والى وراء ، من الصلابة بحيث تفوق حركة ساعديه ، وان الفتى يعرف مثله أن يكون لصيق القاع ، ليتفادى التيار ، ولم يبق له من أمل في الفوز سوى طول النفس والقدرة على البقاء أطول مدة ممكنة في الماء .

وراحت الثواني تمرّ ..

وراح النفس الحبيس الذي ملأ به صدره قبل الغطس يتناقص ، وشعور بالضيق ينتابه ، ثم تحول الضيق الى ما يشبه الاختناق ، واحسّ ان طبلتي اذنيه تكادان تتمزقان ، ومع ذلك أصر على البقاء في الماء ، وجاهد ، مستنفدا كل رصيده من القوة ، كي يمضي الى أمام ، لائذا بكبريائه وخبرته ومستقتلا حتى الموت .

وكان الفتى ، من جهته ، قد استشعر الضيق أيضا . فهم لماذا آثر سعيد السباحة غطسا . وقال في نفسه : « يا له من بحّار ! » . وخطر له أن يمد يده ويمسكه ، أن يجعله يخرج الى السطح معه في وقت واحد ، ليكون التعادل بينهما ، غير ان سعيد رفض هذه الحركة . وقام الفتى ، للمرة الثانية ، بمحاولة اعتراضية لم تخف على البحار القديم ، وان كانت قد استثارته ، فمرق بانحراف جانبي ، وتملص من خصمه وسبقه . وعندئذ استبدت بالفتى روح الخصومة الطائشة ، ومال الى العراك تحت الماء ، فأرسل قبضته في خاصرة سعيد، وقد كانت الضربة من السرعة واليأس بحيث طاشت عن هدفها ، واختلّ لها توازنه الانسيابي الذي حافظ عليه حتى الآن ، واضطر الى رفع ساعديه الى أعلى ، بينما تصلّب ساقاه كرمحين باتجاه القاع ، واندفع الى السطح بقوة .

خرج سعيد في اللحظة نفسها أيضا . كان من الاعياء بحيث ترنح ، وكاد يغيب عن الوعي ، لكنه تماسك ، وبجهد فتح عينيه اللتين حرقهما الملح ، ونظر الى الشمس وعاد فأغمضهما . ان فوزه الذي هلل له الحاضرون لم يسعده . كان فوزا صعبا ، لا يليق به ، ولا يتكافأ مع ماضيه . ان البحر ، منذ اليوم ، لم يعد ملعبه ولا مملكته ، ولئن غلب الفتى هذه المرة ، بهذا

الثمن الباهظ من الجهد ، فانه يشك أن يغلبه في أيما مرة مقبلة . انه يشيخ ، وتلك هي الحقيقة .

شيء واحد رغبه في أعماقه : أن يصفع الفتى ، ثم أن يقبّله . لقد كان فتى قويا ، وبحارا له المستقبل. كانت تنقصه الدربة ، هذه التي سيكتسبها يوما ، وانما كان يلجأ ، في محاولة الفوز ، الى حيل صغيرة ، لا تتلاءم وشرف البحّار ، وكان سعيد يكره هذا ، ويحب أن يحافظ ، حتى الرمق الاخير ، على نقاء الاشياء ، غير انه عذر الفتى ، صغير السن .

وقال له الفتى :

ــ ربحت .

وقال سعيد بصوت أبحّ :

ــ لا ، لم اربح .. أنا لا أعدّ هذا ربحا ..

قال الفتى بكل طيبة :

ــ أما أنا فقد خسرت ..

وقال سعيد في نفسه : « وأنت لم تخسر ، البحر لك يا فتاي ، ولكن لا تعد الى لعبة الاعتراض هذه . انها اسوأ من الخسارة » . لكنه لم يستطع أن يتلفظ بذلك ، بل نظر الى الفتى بحنان ، وأحسّ ان الفتى فهم ما أراد قوله ، ووعاه جيدا .

ثم استدار نحو الشاطىء وولى ظهره للبحر : وداعا للبحر .

كان يمشي ببطء ، ويحس انه سيسقط لدى كل خطوة ، وقد تجنب أصحابه فلم يبادلهم كلمة واحدة ، وآثر أن يخرج من الماء ، قبل أن يكتشفوا حالة الاعياء التي هو عليها .

مضى يترنح وحيدا ، مجهدا الى درجة التلاشي ، وكانت الشمس ساطعة ، وطيور النورس تحوم وتحط على ذرى الامواج ، وفي الابعاد مراكب صيد ، وعلى الشاطىء جمع غفير ، وقد دهش أصحابه لانسحابه على هذا النحو المفاجىء ، ولهذا الاربداد في سحنته ، هو الذي فاز ومن حقه أن يزهو ويتهلل ، أما هو فلم يكن يبالي بما يقولونه أو يفكرون به ، وكانت مشاعره المتضاربة تتشوش لدى كل خطوة ، وتغيم الرؤية في عينيه حتى لا يكاد يتبين طريقه .

سار الى الرمل وارتمى عليه . أغمض عينيه ليطرد الدوار من رأسه ، واستسلم للدفء فاستشعر الراحة . انه في النقطة التي تتساوى عندها الاشياء ، وليس يحس حقدا ولا عتبا ، ولا يرغب في سوى النوم .

كان يضغط جسمه على الرمل بقوة ، كمن يود أن يغوص فيه ، وعندما رفع رأسه ، بعد قليل ، ونظر في البحر ، استطاع أن يميز الفتى بجهد . كان هذا يسبح كدلفين نحو الاعماق .. كان فتى وكان قادرا أن يسبح كدلفين نحو الاعماق .

وقال سعيد في نفسه : « اذهب بسلام أيها الفتى » . وعاد فأغمض عينيه . ومن جديد ألصق جسمه المكدود بالرمل ، وود لو يغوص عميقا في الرمل.

لقد أدرك الآن لماذا لم تعد تظهر له « عروس البحر » (✱) .

---

( ✱ ) الفصل الاول من « حكاية بحار » التي تصدر قريبا عن « دار الآداب » .

صدر حديثا :

**زوربا**

**الرواية الشهيرة لـ :**

**نيكوس كازانتزاكي**

**بعد غيابها طويلا عن السوق**

**ترجمة جورج طرابيشي**

•

**الشك**

**الرواية الشهيرة لـ :**

**كولن ولسن**

**التي كانت تنقص مجموعته الروائية الكاملة**

**صدرتا حديثا**

**في طبعة جديدة**

**عن دار الآداب**